موقف الامويين من الدعوة الاسلامية

واسباب منافستهم لبني هاشم

ما برحت السيرة النبوية ميداناً فسيحاً لاقلام الكتّاب والعلماء شرقيين وغربيين يجولون في نواحيه ومرتعاً خصباً للشعراء والادباء يستمدّون منها الوحي والالهام : يزيدها البحث والاستقصاء اشراقاً وسناءً ، ويجلوها الدرس والاستقراء ويساعد على استخراج العبر والعظات من ثناياها وعلى استنباط الاحكام والقواعد من تضاعيفها

ويضيق بنا المقام لو حاولنا احصاء ما أُلّف في موضوعها من كتب فأمر ذلك يطول وحسبنا ان نقول انهُ لم تبق لغة من اللغات الحية وخصوصاً اللغات الاوربية المنتشرة الاّ وضعت فيها عشرات المؤلفات ، ولئن تجاوز بعض المؤلفين والباحثين الغربيين في القرون الوسطى حدود الاعتدال والروية في تدوين حوادثها وسرد اخبارها ، فقد انصف متأخروهم المسلمين ونبيّهم فجاءت كتاباتهم يزينها الانصاف وتتجلى فيها روح التجرد والرزانة

ويعثر دارس السيرة النبوية في كتب العرب والافرنج على معلومات مبعثرة في التنافس بين الهاشميين والامويين تميط اللثام عن عوامله واسبابه وتبين البواعث التي بعثت هؤلاء على مقاومة الدعوة الاسلامية وخصوصاً في ابتداء امرها ؛ وهو التنافس التي حفلت بحوادثه واخباره المؤلفات القديمة ، وكان مصدر شقاق ونزاع خلال القرن الاول ونصف القرن الثاني بين المسلمين اي انهُ استمرّ سحابة الحكم الاموي وامتدّ حتى اوائل قيام الدولة العباسية وقد بالغ رجالها في التنكيل بالامويين وانصارهم ، فلجأوا الى المغرب وانشأوا فيهِ دولتهم الكبرى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في الشرق . ولئن نسي المسلمون هذا الخلاف بعد زوال الحكم الاموي وانقضاء عهده ، فلا يزالون يذكرون مصرع الشهيد ابي عبد الله الحسين في كربلاء على يد الامويين وما اقترن بهِ من فجائع وفظائع يتلون تفاصيلها بكرةً وعشيا

لقد كان حبل الودّ والصداقة ممدوداً في الجاهلية وقبل البعثة النبوية بين الهاشميين والامويين تجمعهم جامعة النسب والقربى وتربطهم اواشج المصاهرة وهم ابناء عم لحمًا . فرسول الله يجتمع مع ابي سفيان في الجد الخامس فهو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أما ابو سفيان زعيم الامويين يومئذٍ فهو ابن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف

وكانت الزعامة السياسية والحربية[1] والتجارية لبني عبد شمس في مكة ابان البعثة النبوية وفي الفترة التي سبقتها — لغناهم ولاتساع نطاق تجارتهم فقضوا على مقاليدها . وكان ابو سفيان يقود القوافل الى الشام والعراق ويضرب اكباد الابل متعمداً ومسوماً وطاوياً ارض الجزيرة طيًّا في طلب الثروة والغنى . وكانت الزعامة الدينية في بني هاشم وهم اصحاب سقاية الحجيج ولم تكن حالتهم المادية على ما يرام حيال أبناء اعمامهم من الامويين التجار . ولم يشذ عن هؤلاء سوى العباس بن عبد المطلب فقد اصاب حظًّا من الثروة والغنى . من اشتغاله بالتجارة وكانت حالة ابي طالب رقيقة يدل على ذلك انه قبل اقتراحاً عرض عليه بان يوزع ابناءه بين آله في احدى سني الجدب للتخفيف عنه فتولى الرسول — بعد زواجه بخديجة وقد حسنت بسببه حالته المادية — امر علي . وكفل العباس جعفر واستبقى ابو طالب عقيلاً لنفسه وكان احبَّ بنيه اليه

وبين الدين اسرفوا في معاداة النبي ومقاومته في ابتداء امره ، ابو جهل واسمه عمرو وكنيته ابو الحكم وهو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهو عميد بني مخزوم انداد الامويين في الزعامة والثروة والغنى . وقد امتاز هو وابو سفيان في تدبير المكائد وقيادة الجيوش لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، ولئن هلك الاول مقتولاً بايدي المسلمين يوم بدر فقد اسلم الآخر (ابو سفيان) يوم فتح مكة وشهد حنيناً مع النبي وتم لابنه معاوية امر الخلافة وانشأ الدولة الاموية وقد نسبت الى جده الاكبر

ومما يصحُّ الاستشهاد به على ما بين الامويين والهواشم من صلة قرابة ونسب ما خرَّجهُ البخاري عن ابي سفيان حينما ورد كتاب رسول الله الى قيصر الروم هرقل يدعوهُ الى الاسلام وكان في حمص فقال حين قرأه التمسوا هنا لي احداً من قومه لأسألهم عنهُ . قال ابو سفيان فوجدنا رسولُ قيصر فانطلق بي وباصحابي من تجار قريش حتى قدمنا ايلياء . فأدخلنا عليه فاذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج واذا حوله عظماء الروم . فقال لترجمانه سلهم ايهم اقرب نسباً الى هذا الرجل الذي يزعم انه نبي . قال ابو سفيان فقلت انا اقربهم اليه نسباً . قال ما قرابة مابينك وبينه فقلت هو ابن عمي وليس في الركب يومئذ احد من بني عبد مناف غيري الخ[2]

وعلل ابو جهل اسباب مقاومته لدعوة رسول الله تعليلاً عبر فيه احسن تعبير عن حقده على بني هاشم الذين بعث الله منهم رسولاً فقال ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه وحي السماء فمتى ندرك مثل هذا ، والله لا نؤمن به ابداً ولا نصدقهُ[3]

---

(١) يؤيد ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان حرب والد ابي سفيان قاد قريش في حرب الفجار وقد وقعت قبل البعثة النبوية وتيمد النبي وهو صغير مع اعمامه وكان يناوشهم النبال (٢) البخاري ج ٢ — ص ١٠٥
(٣) ١٩٣ — ج ١ ابن هشام

فهذا «التصريح» يدل على ما كان هنالك من منافسة بل وحسد وعلى ما كان هذا المخزومي يجدهُ على الهواشم وكيف كان بعد قيام واحد منهم بنشر دعوة لدين جديد مجداً شخصيًّا يضاف لهؤلاء ويحرم هو وقومه منهُ ولذلك اجمعوا امرهم منذ الساعة الاولى على المقاومة وعدم التسامح بوجه من الوجوه ، وقد لا يبعد ان يكون هذا الباعث نفسه ، هو الذي بعث بني هاشم ، ولم يقبل الدعوة منهم في اوائلها سوى عدد قليل جدًّا على تأييد الرسول وشد ازره وتحمل انواع الاذى والاضطهاد في سبيله . ولا يخفى ان اول من اسلم من الهاشميين هو علي بن ابي طالب وقد كان غلاماً يافعاً في كنف محمد . وتلاه اخوه جعفر وكان بين الذين هاجروا الى الحبشة وأسلم حمزة في السنة الثامنة . وأسلم العباس في السنة العاشرة وكان النبي زاحفاً على مكة . وكذلك سفيان بن المغيرة . ومات ابو طالب وابو لهب على دين الجاهلية . وشذ هذا وحده عن آل هاشم فالأ الامويين على ابن اخيه واهله . ومات عام بدر متأثراً من ضربة ضربتهُ بها زوجة العباس اخيهِ في حادث طويل ليس هنا مكان بسطه

ويلوح لنا ان السبب في اغراق ابي جهل في العداء وتماديه فيه هو ملازمته للنبي في مكة لايكاد يفارقهُ ليلاً ولا نهاراً خلال السنوات العشر الاولى ، على الضد من ابي سفيان الذي كان يرحل في تجارته . على انهُ ما لبث ان تفرد بالعمل بعد هلاك ابي جهل فانتهت اليهِ الزعامة العليا في قريش واصبح سيد القوم غير مدافع . والف ابو جهل الوفود وسار على رأسها الى ابي طالب يرجوه باسم قريش بأن يكف لسان ابن اخيه عنهم ويمنعهُ عن الطعن في آلهتهم ومعتقداتهم وهم مستعدون ان ينيلوه جميع ما يرغب او يسأله اياهُ ليقتلوه وقالوا له يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه احلامنا وضلَّل آباءنا فاما ان تكفهُ عنا واما ان تخلِّي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليهِ فنكفيكهُ فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً

وكرَّر ابو جهل وابو سفيان قيادة الوفود الى ابي طالب يرجونهُ ان يكف عنهم ابن اخيهِ وكان من عصبيتهِ في حرز حريز . ولما ضاقوا ذرعاً وادركوا انهُ لن يتخلى عنهُ ، وان الاعتداء عليهِ قد يؤدي الى اضرام نار حرب اهلية في مكة لاتبقي ولا تذر وان امرهُ في ازدياد ، قرروا ان يقاطعوا بني هاشم كافة ويحاربوهم حرباً اقتصادية اجتماعية ، وربما كانت قريش اول من لجأ الى هذا الضرب (المقاطعة) من ضروب الحروب الاقتصادية في مقاومة خصومها والاقتصاص منهم لاعادتهم الى رأيها ومعنى ذلك ان المقاطعة عرفت منذ اربعة عشر قرناً ونيف

وعقدت الجمعية العمومية لقريش في الكعبة فدرست قضية بني هاشم وبني عبد المطلب من آل عبد مناف وشدهم ازر محمد فاتفقت الكلمة على ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً وكتبوا بذلك صحيفة وقعها الجميع وعلقوها في الكعبة

ورأى بنو هاشم انهم امام حالة جديدة وان مكة اتفقت بجميع هيآتها واحزابها ورجالها

عليهم لحملهم على تسليم رجلهم فجحروا الى المقاومة وابوا الخضوع والتجأوا الى ابي طالب فلجأ بهم الى شعبه[1] ابي شعب ابي طالب واقاموا فيه ثلاث سنوات محصورين لا يتصلون بمكة الا في خلال الاشهر الحرم فاذا انتهت رجعوا الى شعبهم وعاد المكيون الى حصارهم على انهم كانوا يمتارون سراً وقد انضم اليهم في هذه العزلة المسلمون . وفي نهاية السنة الثالثة ظهرت حركة في مكة ترمي الى وضع حدٍّ للمقاطعة قادها زهير بن ابي امية وهاشم بن ربيعة وابو البختري بن هشام والمطعم بن عدي فتم لها نقض قرار الحرمان والغاء المقاطعة رغم مقاومة ابي جهل الشديدة

واشتد ساعد المسلمين بعد الغاء المقاطعة وانصرف النبي الى نشر دعوته بين القبائل فاضطربت قريش وعقدت اجتماعاً في دار الندوة فاقترح ابو جهل[2] اقتراحاً فقال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة شاباً فتياً جليداً ، نسيباً ، وسيطاً ، فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه (محمد) فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فانهم ان فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو مناف على حرب قومهم جميعاً

واتصل به نبأ هذه المؤامرة فغادر مكة الى المدينة مهاجراً ليكون في مأمن على نفسه ، بعد ان مهد لذلك بمبايعة الاوس والخزرج له وبعد ان امر المسلمين في مكة بالهجرة الى يثرب وهناك اسس دولته الجديدة فقاتلت قريشاً وغلبتها على امرها وانتزعت منها السيادة والمجد

فقد اصطدم المسلمون بقريش في بدر للمرة الاولى فانتصروا عليهم فسهل لهم هذا النصر التغلب على المصاعب العديدة والاستيلاء على جزيرة العرب . وخلاصة ما وقع ان النبي خرج يوم ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة يقود جيشاً يتألف من ٢٤٠ من الانصار و٧٠ من المهاجرين ليسطو على قافلة قريش السنوية الكبرى التي تسافر بين الحجاز والشام فنزل بدراً وهي مكان متوسط تمر به القوافل في غدوها ورواحها وتسقى من آباره فلما علم ابو سفيان وكان يقود قافلة قريش بخروج المسلمين للقائه خاف على قافلته وفيها لحوالف جمل موقرة بالبضائع ويبلغ ثمنها نحو نصف مليون دينار فاستأجر رسولاً ارسل الى مكة لينذر اهلها بالخطر وليدعوهم الى الخروج للدفاع عنها فلبوا النداء وهرعوا للحرب بقيادة ابي جهل وعدتهم الفاً فساروا ونزلوا وراء كثيب العقنقل في العدوة القصوى من بدر . واقاموا هنالك ثلاثة ايام ثم جاء رسول من ابي سفيان وقد نجا بقافلته يقول لهم : انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وامرائكم وقد نجاها الله فارجعوا . فقال ابو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابداً فامضوا

وانتشرت في جيش قريش فكرة الرجوع وعدم الاشتباك في حرب مع المسلمين يؤيدها

---

(١) لفظ شعب لا يزال حتى الآن شائعاً في مكة فيقال شعب جياد وغيره والمقصود به معنى الحي تقريباً

(٢) ٢٩٨ ج ١ ابن هشام

حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة والاخنس بن شريق وغيره . وقد عاد هذا فعلاً بقومه من بني زهرة فلم يشهدها احد منهم . وحاول حكيم ابن حزام اقناع ابي جهل بالرجوع فأبى وحرض الناس على القتال فوقعت المعركة ودارت الدائرة على قريش وقتل ابو جهل نفسه قتله شابان من الانصار (معاذ بن عمرو بن الجموح واخوه معوذ) ارشدهما اليه عبد الرحمن بن عوف فضرباه فجرحاه . ودافع عنه ابن عكرمة

ومرَّ عبد الله بن مسعود بابي جهل بعد انتهاء المعركة ، يتلمس القتلى ، فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع رجله على عنقه ثم قال له هل اخزاك الله فقال اخبرني لمن الدائرة اليوم

— لله ولرسوله — لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يا رويعي الغنم

ثم حزَّ عبد الله رأسه وجاء به الى النبي والقاهُ بين يديه فقال الله الذي لا اله الاَّ هو . وهكذا انتهت حياة هذا الزعيم

***

انتهت الزعامة العليا في الوادي[1] بعد قتل ابي جهل وغيره من كبار الامويين يوم بدر الى ابي سفيان فاخذ يعد العدة للثأر والانتقام فهو الذي دبر حملة احد وقادها كما قاد غزوة الخندق ثم أسلم يوم فتح مكة كما قلنا آنفاً وذلك انه خرج يبحث في اعالي مكة عن خبر النار وقد اوقدها جيش المسلمين حينما وصل ليلاً ، وما كانت قريش تعرف من امره شيئاً ، لان النبي بالغ — حسب عادته — في كتم خبر زحفه على مكة فالتقى ابوسفيان بالعباس عم النبي وقد أسلم هذا قبل ذلك فقال له يا ابا حنظلة هذا رسول الله في الناس واصباح قريش والله . قال فما الحيلة فداك ابي وامي ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنهُ لك

وركب ابو سفيان خلف العباس وكانا كلما مرَّا بنار من نيران المسلمين قالوا هذه بغلة رسول الله حتى مرَّا بنار عمر بن الخطاب فقام عمر حينما رأى ابو سفيان وقال هذا عدو الله ابو سفيان الحمد لله الذي امكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله وركض العباس البغلة فسبقتهُ فدخل عليه ودخل عمر وراءه . فقال يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه . فقال العباس اني قد اجرته ثم جلس الى النبي فاخذ برأسه وقال لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما اكثر عمر في شأنه قال العباس : مهلاً يا عمر فوالله انهُ لو كان من رجال عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت انه من بني عبد مناف . واخيراً امر النبي العباس بان يذهب به في رحله ويعود به في الغداة فلما رآه الرسول في الغداة قال ويحك يا أبا سفيان لم يأن لك ان تعلم انهُ لا إله الا الله

— بأبي انت وأمي ما احلمك واكرمك واوصلك والله لقد ظننت انهُ لو كان مع الله آلـه

(١) كانوا يكنون بهذا عن مكة لوقوعها في واد بين جبال شاهقات

غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد — ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله — بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك . اما هذه والله فان في النفس حتى الآن شيئاً فتدخل هنا العباس وقال له : ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فسلم . واقترح العباس على النبي ان يجعل لابي سفيان شيئاً يمتاز به عن غيره فاعلن ان من دخل دار أبا سفيان فهو آمن وانطلق هذا الى قومه فصرخ باعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم في ما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن. فما سمعت زوجته هند بنت عتبة صياحه قامت اليه فاخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم . فقال لا تغتروا اليها وهكذا كانت نهاية ابي سفيان وعلى هذا المنوال دخل في الاسلام فهل كان مخلصاً في اسلامه؟

ان هنالك حادثتين حدثتا بعد ذلك تلقيان شيئاً من النور على موقف ابي سفيان

فالحادثة الاولى كانت يوم حنين فقد كمن المشركون للمسلمين فلما وقعوا في الكمين اسمعوا فيهم طعناً وضرباً فتراجعوا وكان ابو سفيان في جيش المسلمين فلما رأى ارتدادهم وتراجعهم في اول المعركة قال « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[1] » فهو بذلك يعرب عن اغتباطه بهزيمة المسلمين ويقول انهم لن يقفوا حتى البحر اي انهم سيجلون عن مكة

واما الحادثة الثانية فكانت يوم وفاة النبي فقد حاول ابو سفيان ان يحدث حدثاً فخطب سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش في مكة فقال «والله اني لأعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها . فلا يغرنكم هذا (واشار الى ابي سفيان) من انفسكم فانه يعلم من هذا الامر ما اعلم ولكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم »[2]

على انه لا بدَّ لنا من الاشارة الى موقف يزيد بن معاوية حينما جيء له برأس الحسين الى دمشق بعد كربلاء وهو ذو صلة بموضوعنا ويدل على ان دخول الامويين في الاسلام وبلوغهم الذروة العليا من السيادة بفضله لم تنسهم قتلاهم ببدر فقد روى الرواة انه لما وضع رأس الشهيد ابي عبدالله الحسين بين يديه في طشت اخذ ينكته بقضيب في يده وينشد — ليت اشياخي ببدر شهدوا الخ

وهناك امر آخر قد يفيد التنبيه عليه وهو انهُ كان بين الامويين من اسلم في ابتداء الدعوة وأدى خدمات جليلة للاسلام وفي مقدمة هؤلاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان صهر النبي فقد دخل في الاسلام على يد ابي بكر وكان رابع اربعة دخلوه فأولهم خديجة ثم علي ثم ابو بكر ثم عثمان واسلم معه في يوم واحد سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وبلال

وكذلك فقد دخل في الاسلام حنظلة بن ابي سفيان وهو كبير اخواله واستشهد هذا في صفوف المسلمين يوم احد . وحذيفة بن ربيعة وغيرهم ولعلنا ندرس هذا الموضوع في مقالة اخرى

القاهرة امين سعيد

(١) ابن هشام ٢٩٢ — ج ٢ (٢) نور اليقين ١١٥